العالم العربي

الحرية عقار أدوائه

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيه أصوله ، فيتحقق في نفس الرجل الحر ، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى أي أثر في الخارج . فاذا لم تتم الحرية في النفس ، انعدمت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً .

لما قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، تلقتها الأيدي المستنيرة من الشعب الفرنسوي، فوضى غامرة ، قضت على كل التقاليد القديمة التي قامت عليها النظامات الفرنسية منذ عهد لويس الرابع عشر . فالنظريات السياسية والأصول الاجتماعية والفوارق التي قام عليها مجلس الطبقات في فرنسا ، وهم النبلاء والشعب ورجال الكنيسة ، تناولتها معاول الهدم التي عمل بها الشعب الفرنسي في أصول هذه الأشياء ، وفي كثير غيرها .

فلما أراد المستنيرون أن يقيموا البناء الجديد على قواعد مثالية ، وضعوه على أساس الحرية والاخاء والمساواة ، وعملوا على أن يقيموا صرح فرنسا الجديدة بل والعالم المتمدين على هذه المبادىء الثلاثة ، ومضوا يعملون على نشرها ، لا في القارة الاوربية وحدها ، بل أرادوا أن يجعلوها أساس الحياة السياسية والاجتماعية في غيرها من القارات . غير أن هذا الحلم لم يمض طويلا ، انقضت عليه عوامل كثيرة ، كان أعظمها شأناً انتصار فرنسا في الحروب التي تلت الثورة ، فذاق رجالها طعم القوة ، وأخذوا بنشوة النصر ، فنسوا تلك المبادىء وراحوا فريسة لفكرة التسلط : imperialism وكانت تلك النزعة أكبر ما مهد لحكم نابوليون الأول .

هذا سبب من الأسباب العارضة ، أي التي جاءت بالاضافة الى الثورة إسفافاً وراء ما تملي القوة من صنوف الاغراء . غير أن هنالك سبباً آخر أعمق بكثير من هذا السبب ، سبب حملته تلك المبادىء التي اتخذت أساساً لبناء العالم الجديد ، وظل كامناً في تضاعيفها حتى عفّى عليها

لقد أراد هؤلاء المستنيرون، وهم بعد واقعون تحت تأثير حكم استبدادي طويل، وانتصار عاد كل مجده على الشعب الفرنسي وحده دون الملك المستبد، أن يوفقوا بين ثلاثة مبادىء، واحد منها طبيعي، واثنان خياليان. فالحرية هي المبدأ الطبيعي والاخاء والمساواة خياليان. لهذا عاشت الحرية في أرض فرنسا، ومات الاخاء ودفنت المساواة. عاشت الحرية فأسست في أرض فرنسا أربع جمهوريات على التتالي، وخلفت من ورائها تراثاً مجيداً لم ير الشعب فيه أثراً خلفه الاخاء، أو عرضاً ورثته إياه المساواة.

ذلك بأن التوفيق بين الجوهر والعرض، ليكون لكل منهما أثر صاحبه، أمرٌ مخالفٌ لطبيعة الاشياء مناف لأوليات التطور الذي تسوق فيه الطبيعة كل شيء في هذا الوجود. أراد هؤلاء المستنيرون أن يوفقوا بين جوهر ثابت في الطبع الانساني، وعرضين كلاهما خارج عن طبعه الرسيس، بل هو من خلق العقل وحده إذ ينزع الى مثاليات، ان لم يستطع أن يحققها في الواقع، فلا أقل من أن يسعد بها في أمانيه.

أقدم بهذه المقدمة لأثبت أن الحرية وحدها هي التي استطاعت أن تنقذ فرنسا في كل الأدوار العصيبة التي مرّت على امبراطوريتها النابوليونية وعلى جمهورياتها الأربع، وهي التي ستنقذها في محنتها الأخيرة. ولقد استطاعت الحرية أن تخدم فرنسا وهي معنى محقق الدلالة في الخارج، بقيامه في نفس الشعب. هذا المعنى خدمه الأدب والفن والعلم والسياسة والصناعة، وعلى الجملة كل المرافق التي قامت عليها الحضارة الفرنسية خلال قرن ونصف قرن من الزمان. أنقذت الحرية فرنسا لأنها حق طبيعي يولد مع الانسان ولا يلحد معه، بل يتركه الانسان لمن هم بعده. حق لا تختلف فيه نظرة العلم ولا الفلسفة ولا الفن ولا الدين. ومن أجل أنه طبيعي، فهو كسكل الاشياء التي تمنحها الحياة للحي العاقل، لا ينبغي أن يسلب أو يعتدى عليه أو يتنازل عنه بأي حال من الأحوال وبأية صورة من الصور. ولذا كان الاعتداء على الحرية بمثابة الاعتداء على الحياة ذاتها، لأن حياة الانسان لا يتحقق معناها الا إذا تحققت الحرية.

***

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيها أصوله فيتحقق في نفس الرجل الحر، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى اي أثر في الخارج. فاذا لم تقم الحرية في النفس انعدمت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً، ورجع الانسان الى الدرجة التي لا يتحقق له فيها الا الحرية الحيوانية الصرفة كحرية التنقل أو الاغتذاء. وهو ضرب من الحرية يشاركه فيه كل صنوف الحيوان، فلا يكون للانسان الذي يرضى بذلك الضرب من الحرية أي

معنى انساني ، ولهذا ينبغي قطعاً أن نعتبر الشعوب التي ترضى بذلك الضرب من الحرية ، مواتم رضيها أن تشبع شهواتها الحيوانية دون شهواتها العقلية والنفسية . وإذاً فلا يشملها معنى الحرية التي نقصد الى الكلام فيها .

يشارك الانسان كل الاحياء في صفة الحياة . ولكنه يمتاز عليها بأنه « عاقل » . ومن طريق مشاركته للاحياء في صفة الحياة يتحقق له ذلك الضرب من الحرية التي هي للحيوان . اما صفة أنه عاقل فتحقق له ضرباً آخر من الحرية له صوره المختلفة . وهذه الصور هي التي ينبغي على كل فرد من أفراد العالم العربي باعتباره عالماً تجمع بين أهله أطماع وميول ومشارب ووراثات واحدة تقريباً ، أن يحققوها في أنفسهم، حتى يسعدوا بآثارها الجليلة . ولا شك عندي في أن تحقيق معاني هذه الصور، كافٍ في ذاته ومن غير مجهود كبير ، أن يرفع عالم العرب إلى قمة الدنيا ، وإن كان تحقيقها في ذاته مجهوداً ، مهما عظم ، فانه لا يستكثر على شعوب لها ذلك الماضي العظيم .

لا نطلب تحقيق الحرية في النفس لأن الحرية حق طبيعي للانسان العاقل ولأنها تقرن دائماً إلى الحياة ذاتها . وإنما نطلب ذلك أيضاً، لأن الحرية إذا تحققت في نفس الفرد ، استطاع بذلك أن يعمل على تحقيقها عند غيره من أفراد الجمعية . وهي فوق هذا وذلك واسطة مجدية فعالة في صب العقلية الفردية في قالب ينزع بها دائماً وفي كل الحالات إلى التسمح ، ووزن الاشياء بميزان ذي كفتين ، فلا يميل إلى إحداها كل الميل ، ولا يطفف في تقدير ماله وما عليه، فيلزم دائماً حد الاعتدال، فلا يجنح آونة إلى الافراط وأخرى إلى التفريط، فتقوته أواسط الاشياء ، وهي في الأخلاق الفاضلة حد السعادة وحد الخير، كما يقول ارسطوطاليس، سيد الاخلاقيين.

والحرية وتحقيقها في النفس شيء ، وقبول ما يترتب عليهما من الآثار شيء آخر . فاذا عجزت الحرية عن رياضة العقل والنفس على قبول الحقائق وأن آلمتها لاول صدمة، كما قال أحد الفلاسفة ، قصرت الحرية الفردية عن أن يكون لها ذلك الأثر المطلوب الذي ننشده في حياة الجماعة ، وأصبحت الحرية كفاية فردية لا يتعدى أثرها حياة الفرد . وإنما تحقق الحرية رسالتها الخالدة، إذا انعكست آثارها من الفرد إلى المجموع، وكونت جواً تنطلق فيه العقول من كل التقاليد التي أسرتها وكبتت نزعاتها من الانطلاق في آفاق الفكر البعيدة اللانهائية .

والحرية إذا تحققت في النفس وريض العقل على قبول محتملاتها ، قبلت بسماحة إبداء كل رأي وتمحيص كل فكرة والمناقشة في كل نزعة من النزعات المتباينة التي تنعكس عن صور

الفكر ، وصور الفكر غير محدودة ولا نهائية . وأنت إذا بحثت في أسباب الشقاق الذي يعم العالم آثاره ؛ وصنوف البغض والكراهية والحسد ، تلك التي تقمع الانسانية وقمتها خلال كل العصور من الانطلاق في آفاق العمل الجدي ، فمت بأن قصور النفس عن قبول ما يترتب على تحقيق الحرية فيها من الآثار العقلية واخراجها إلى حيز العمل ، هي كل السبب فيما نرى ورأينا ، وفيما سوف نرى من انقلابات داوية ، ستظل الانسانية تدور من حولها في دائرة مجنة

كتب الفلاسفة والمصلحون ما كتبوا متتبعين خطى التقدم التي خطتها الانسانية منذ أقدم العصور ، وقال بعضهم إن الانسانية تنتظر عصراً ذهبيًّا تزهو فيه الحضارة . وقال البعض الآخر أن ذلك العصر قد مرَّ منذ آلاف السنين ، وإن الانسانية الآن تنحدر ، أو هي على الأقل واقفة تدور من حول تلك الدائرة النحسة . واعتمد الأولون على ما رأوا من تقدم مادي ، واستند الآخرون على ما رأوا في التاريخ من انتكاس كل مبدأ مثالي إلى نقيضه ، في كل محاولة طمحت من طريقها الجماعات في الخطو إلى الأمام . السبب في هذا كله أن الانسان لم يحقق الحرية في نفسه ، ولم يبق لها جزءاً عقليًّا تبرز فيه آثارها المحققة في النفس .

من هنا يظهر لنا جليًّا أن رياضة النفس على تحقيق الحرية وقبول آثار ذلك ، إنما هو أساس الاصلاح الاجتماعي برمته . لو أن هذا المبدأ كان محققاً لما سقطات الحضارة الانسانية تلك السقطات التي جرَّتها إلى الحروب الدينية والخلافات المذهبية التي لا طائل تحتها ، والتي كبلت أيديها وأرجلها بتلك القيود التي صدت الجماعات عن التفاهم على أبسط الأشياء . أشياء قبلتها عقول الأفراد ونبذتها عقلية الجماعات ، تلك العقلية التي ظلت وستظل عهداً طويلاً مسرحاً لتلاعب أنصار الدكتاتورية والطامعين في السلطان والعاملين على استعباد الأحرار ، كل هذا ليجعلوا الانسانية تدور من حول تلك الدائرة النحسة ، فلا تفلت الجماعات من أيديهم ، فتنطلق في آفاق الحرية الواسعة .

إذا اعتقدنا بأن الحرية حق طبيعي ، استطعنا أن نحقق معناها في أنفسنا ، وإذا حققنا معناها في النفس ، تسنى لنا أن نقبل ما يترتب عليها من الآثار . وأثرها الأول تحقيق حرية الأديان . فلكل انسان أن يتدين كما يشاء وأن يعبد إلهه بالطريقة التي يختارها . فلا اكراه في الدين . والدين طريقة اتصال بين الانسان وخالقه . فلكل فرد من الأفراد أن يختار تلك الطريق بمطلق حريته . وأثرها الثاني حرية الفكر . فالحرية الحقيقية تمنع الناس والحكومات وأصحاب السلطان من أن يعاقبوا فرداً على رأيه ، مهما كان مخالفاً لآرائهم ، ومهما كان فيه من منابذة التقاليد . ولن تتحقق هذه الحرية إلا بأن يأمن كل انسان على حياته وماله وعيشه .

وذلك من واجب الجمعية المتمدينة أن تتكفل به. وأثرها الثالث جريرة القول. فان قمع الفكر عن الاتصال بالجو القائم من حوله، قمع للحرية ذاتها، وتعطيل لمعنى الحرية في أبرز صورها.

أما إذا حقق العالم العربي هذه الحريات، فانه ولا ريبة يتربع على قمة الدنيا، ولا جدال في أن وحدة العالم العربي ينبغي أن تقوم على الحرية. لأن اشتراك المرافق بين أجزاء هذا العالم لا تكون مناطاً للوحدة، إذا نظرنا فيها نظرة ضيقة الحدود مقصورة على التبادل المادي. ان هذه المرافق ولا شبهة تكون موضعاً للنزاع والتفرقة أكثر منها سبباً للألفة، إذا لم تقم من ورائها عقلية حرة تزن مصالح الشعوب العربية على أساس من التسمح ومغالبة الأهواء.

* * *

لقد نزعت الشعوب العربية الى الأخذ بمبدإ الديمقراطية في الحكم. وهو مبدأ له هفواته. ولكنه على كل حال أقل صور الحكم هفوات ومفاسد. هو الحد الممكن من الحكم الصالح يبلغ اليه الانسان. ولكن كثيراً من هفوات هذه الصورة من الحكم، ولا شك تنعدم إذا روضنا أنفسنا على الحرية بمعانيها التي أسلفنا القول فيها. فرجال الحكم قبل غيرهم، ينبغي أن يكونوا رجالاً حققوا في أنفسهم معنى الحرية، وراضوا عقولهم على قبول ما يترتب على ذلك من الآثار، ونصبوا أنفسهم أمثلة حية، فيقتدي بهم الناس. ينبغي أن يكونوا القدوة العليا، فلا ينصرفوا إلى المعنى الأدنى، معنى التحلل السياسي، مقلعين عن الانصراف إلى المعنى الأسمى، معنى الحرية.

ولقد قضى علينا مذهب الحكم الديمقراطي أن نوسع من مجال تلك الدائرة التي يخرج منها السياسيون ورجال الحكم، وكلما اتسعت تلك الدائرة قلت المواهب العليا التي تتجه مطامعها الى الاصلاح الحقيقي من طريق الحكم. على انه من المستطاع القضاء على هذه النادرة إذا نحن نزعنا إلى الحرية وحققناها في أنفسنا، وقبلنا آثارها المترتبة عليها. فان في ذلك الضمان الكلي لقيام حكم ديمقراطي يمهد الطريق إلى مستقبل تستقر فيه الجمعية العربية على قاعدة روحانية سامية، والشرق مبعث الروحانيات.

في القرن التاسع عشر طغت على أوربا موجة من السياسة رجّت أساس الحضارة، وبلغت من التأثير في النظام الاجتماعي مبلغاً أزعج المفكرين. قال اناتول بوليو[1] (١٨٨٥) :—

« كلما اتسع المحيط الاجتماعي الذي يتخذ في نطاقه السياسيون وكبار رجال الدولة، نزل

(1) Anatole Beaulieu

مستواهم العقلي . وهذا الانتكاس أبين في أخلاقهم ، منه في أية ناحية أخرى من صفاتهم . نزعت السياسة الى الفساد والتدهور ، حتى لوثت كل الأيدي التي انغمست فيها ، وكل الرجال الذين اعتمدوا عليها في الحصول على معاشهم . ولقد أصبحت المعارك السياسية من الرازة والوقاحة ، بحيث صدت الطبائع النبيلة المستقيمة عن التصدي للسياسة بعنفها ودسائسها . وقد أظهرت الطبقات المنتقاة في أكثر من أمة ، ميلاً إلى الترفع عنها . والسياسة ولا شك تجارة ان أردت أن تنعم بها وتسعد في ظلها ، فينبغي أن يكون لك من الذكاء والمرونة ، أقل مما لك من الجرأة والقدرة على الدس . ولقد أصبحت السياسة في بعض الدول من أكثر مهن الحياة شيناً وقذارة . وما الأحزاب إلا نقابات للاستغلال ، فأضحت وسائلها ، أقل شعوراً بالخجل . كنت جالساً إلى المائدة ولورد غراي أوف فالدون من الضيوف ، وأتيح سؤال في السياسة وهل هي مهنة شريفة ؟ فقال لورد غراي على الفور — « انها تجارة خبيثة » ونقل الأسقف كرايتون عن لورد برايت أنه قال — « لو علم الشعب أي صنف من الناس هم السياسيون ، إذن لهب من سباته وأقصاهم أجمعين » . ونقل أن كونت كافور قال — « أي ضرب من المجرمين نكون ، إذا نحن فعلنا بأنفسنا ، ما نفعل اليوم بإيطاليا » ؟

قيل هذا في عصر كان فيه للقوانين الدولية بعض الوزن ، وكان للأخلاق فيه بعض القيمة ، وكان الشعور بالمسئولية وبالخجل ، من العوامل التي لها بعض الأثر في سياسة الدول . أما وقد انحدر أهل المدنية إلى ما رأينا في الحرب العظمى الأولى وفي هذه الحرب ، من الاستهانة بالحقوق العامة وبالحقوق الخاصة ، فلاشك في أن الاطمئنان الى السياسة في تحقيق ما تصبو اليه أمم سلبت حقوقها الطبيعية ، يكون شذوذاً لا تسوغه طبيعة الأشياء .

كل هذه الخبائث إنما تنمو في جو لا تتحقق فيه الحرية في أنفس الأفراد . ولقد عانى العالم كله من آثارها الأمرين ، وفقد من قواه ومن ثروته ومن جهوده ما لو بقي لنا بعضه لحقق لنا عيشاً أسعد وحياة أمتع وأرغد ، ولتسنمت به الانسانية ذروة الحضارة العليا . حضارة يتحقق فيها السلام والانصراف الى العمل المجدي . حضارة حرة ، قوامها أمم حرة .

هذا ما ينبغي أن نحققه لأنفسنا . ونعني « بأنفسنا » عالمنا العربي ، « حزام الدنيا » من حدود بحر الظلمات إلى تخوم الصين ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى شعاب افريقية الوسطى .

إذا حققنا ذلك ، حققنا معه حلم العظمة والسيادة داخل تخومنا ، حلم أن بلاد العرب للعرب .

اسماعيل مظهر